مسابقة الأدب العربي لطلبة السنة التوجيهية

ديوان حافظ ابراهيم

للدكتور زكي مبارك

تمهيد — اهتمام المرابي باشا بنشر آثار الأدب الحديث — شرح ديوان حافظ والنص على «محاسن» الشارحين — درس الديوان — توجيهات أدبية — المحدث حافظ ابراهيم — ما هو السر في انتصار شوقي على حافظ؟ وما قيمة حافظ على وجه التحديد؟

تمهيد:

لما شعر «شوقي» رحمه الله بأن الشيخوخة بدأت تراوحه وتغاديه أقبل بجدّ على طبع «الشوقيات» ليأمن الخوف على شعره من الضياع قبل أن يموت.

واتفق بعد ظهور الجزء الأول والثاني من «الشوقيات» أن قضيت ساعة مع «حافظ» في منزل الصديق حسن القاياتي فاقترحت عليه أن يجمع أشعاره على نحو ما صنع شوقي، فأجاب بعبارة تنذر بالتسويف، ويرجع ذلك إلى أن «حافظ[1]» لم يكن يملك من الصبر على المراجعة بعض ما كان يملك «شوقي»، فقد كانت حياته اليومية مهدّدة بالقلق، وكان لا يجد الأنس في غير الانتقال من مكان إلى مكان، ليخرج من عزلته البيتية بمحادثة من يصادف من الرجال.

وبعد أن انتقل حافظ إلى جوار الله في صيف سنة ١٩٣٢ قام جماعة من أصدقائه وقرروا الاحتفال بذكراه، وكانت لهم يومئذ مشروعات عظيمة، منها تأليف كتاب في إظهار عبقريته يشترك فيه فحول الباحثين؛ ومنها طبع ديوانه، وإقامة قبره على قواعد عالية تذكّر الناس بمنزلته السامية؛ ومنها دعوة الأدباء في سائر الأقطار العربية للاشتراك في حفلة التأبين، إلى آخر ما يجود به الخيال في مثل تلك الحال.

وفي ذلك العهد كتبت كلمة في «البلاغ» قلت فيها إن تلك القرارات لن ينفّذ منها شيء، ورجوت أصدقاء «حافظ» أن يقفوا وقفاتهم على عمل واحد هو طبع الديوان، فقد كنت أعرف أن أدباءنا في أغلب أحوالهم رجال أقوال، لا أعمال، وهل صنعوا شيئاً في إنقاذ ما ترك «زكي باشا» من الآثار الأدبية، وفيها نفائس قد لا يجود بمثلها الزمان؟ وهل تظنهم يلتفتون إلى جمع ما تبدّد من آثار «محمد مسعود»؟.

لم يصنع أصدقاء حافظ شيئاً يؤكد الوفاء لذلك الروح الوهاج، ولكن الله لم يشأ أن يضيع حافظ في هذه البلاد، فكانت تلك الالتفاتة الكريمة من وزير المعارف الأسبق «علي زكي العرابي باشا»، الالتفاتة التي قضت بأن يُطبع ديوان حافظ على نفقة وزارة المعارف، وأن يكون ظهوره بداية لطائفة من المطبوعات تُحيي ما يُخاف عليه من آثار الشعر الحديث، فقد كان من العجب أن تكون مصادر الأدب في القرن الثاني أقرب إلى الأيدي من مصادر القرن الرابع عشر، وتلك ظاهرة لا نسكت عنها إلا كارهين.

وفي هذا المعنى كتبت في جريدة المصري مقالاً جاء فيه:

«إن العرابي باشا أخذ جزاءه الأوفى يوم ظهر ديوان حافظ، فقد استطاع أن يؤدي إلى اللغة العربية خدمة جليلة بإحياء شاعر كان في عصره ملء المسامع والأفواه والقلوب... وما الذي يمنع من أن يتفضل فيشير بطبع مجموعات وافية مما نظم الشعراء وكتب الكاتبون منذ فجر النهضة الحديثة إلى اليوم؟! إنه خليق بأن يجعل ديوان حافظ فاتحة لعهد جديد من المطبوعات العلمية والأدبية التي تشهد بما صنعت مصر في العهد الحديث، وهو إن حقّق هذه الرغبة فسيمكّن الأدباء في مصر وفي سائر الأقطار العربية من الوقوف على طلائع النهضة الأدبية، وهي نهضة نرجو أن تقوى وتستفحل لتُثمر الأبناء والأحفاد بأن لهم لغة قوية تُطاول اللغات الحية، وتسابقها في ميادين العلوم والآداب والفنون. فإن قال الوزير إن أمثال هذه الأعمال مما يقوم به الأفراد لا الحكومات فإنا نجيب بأن الحال في مصر تختلف عما عداها بعض الاختلاف؛ فالمصريون لا يزالون يودون أن ترفع عنهم حكومتهم كثيراً من التكاليف، ومن شواهد ذلك مطبوعات الجامعة المصرية ومطبوعات دار الكتب المصرية؛ فهذه المطبوعات يعجز عنها الأفراد، ولا تستطيع المكاتب أن تنهض بها إلا بجهد عنيف. وما بالنا نلحّ على الوزير في تحقيق هذا الفرض؟ إنه يعرف أن دراسة الأدب الحديث مقررة في المدارس الثانوية والمعاهد العالية، ودراسة هذا الأدب ستظل ضعيفة ما دامت المصادر بعيدة عن أيدي الأساتذة

(١) أنا أيضاً من أرباب الأعلام

والطلاب ؛ فهو حين يحقق هذا الغرض يؤدى خدمة أساسية لا كمالية ، ويجعل أبناءه فى المدارس الثانوية والعالية قادرين على التمكن من ناصية الأدب الحديث ، وهو كذلك سيمنّ شريعة جديدة لأمثاله من وزراء المعارف فى مختلف الأقطار العربية ؛ فقد نسمع بعد قليل أن وزراء المعارف فى الشام والعراق والمغرب والحجاز قرروا نشر ما اندثر عندهم من معالم الأدب الحديث ، وعندئذ تقترب هذه الشعوب بعضها من بعض ، وتضيع مآرب الباغين الحادين من خصوم لغة القرآن »

وإنما أعدت هذه الفقرة من مقال نشرته قبل سنين لأنى أجد فيها دعوة يجب أن تجدّد فى كل يوم ، فما تزال الحكومات العربية قليلة الالتفات إلى أهمية الأدب الحديث ، وما يزال فى الدنيا أقوام يرون الأدب الجديد أقل قيمةً من الأدب القديم ، مع أن أدبنا فى أكثر نواحيه أعظم حيويةً من أدب القدماء ، وهو يصور ما نحن عليه من قوة وضعف ، وإيمان وارتياب

شرح ديوان حافظ

شرح هذا الديوان ثلاثة من أهل الأدب ، هم الأساتذة : أحمد أمين ، وأحمد الزين ، وإبراهيم الإبيارى . وقد نص الأستاذ أحمد أمين فى المقدمة على أن هذا الشرح أُريدَ به نابتة الأدب وناشئة الشعر ، ولم يُرَد به الخاصة والمنتهون

ومعنى هذا الكلام أنهم قد يوضحون ما لا يحتاج إلى توضيح رعايةً لأفهام المبتدئين

وكان الأمر كما قالوا فى المواطن التى تسعفهم فيها المعجمات ، كأن يقولوا إن السدة هى الباب ، والشجون هى الأشواق

أما إذا احتاج الشرح إلى بحث فالمبتدئون فى حكم المنتهين ، ولا موجب للعناء !

ومن أمثلة ذلك :

١ — وردت فى شعر حافظ كلمة (آذار) فقال الشارحون :

« شهر من شهور السنة المسيحية معروف »

فهل فى الحق أن المبتدئين من شبان مصر يعرفون آذار ؟ كان الواجب أن ينص على أن (آذار) هو شهر (مارس)

والقول بأن آذار من شهور السنة المسيحية خطأ فى التاريخ ؛ والصواب أن يقال من شهور السنة الشمسية ، فقد عُرِفَ التقويم الشمسى قبل المسيح بأزمان طوال

ونحن اليوم نقول سنة قمرية وسنة شمسية ، أما أسلافنا من العرب فكانوا يقولون : سنة هلالية وسنة خراجية

٢ — ورد فى شعر حافظ اسم (مانى) فقال الشارحون :

« هو صاحب مذهب المانوية المشهور »

فهل يمكن القول بأن مذهب المانوية مما يعرف المبتدئون ؟

ثم أراد الشارحون أن يعينوا الوقت الذى ظهر فيه (مانى) فقالوا إنه ظهر فى أيام سابور بن أردشير

وأقول إن هذا الكلام كان ينفع من يعيشون قبل ألف سنة ، يوم كان العرب على بيِّنة من تواريخ الأكاسرة ، أما اليوم فهو كلام غامض المدلول

٣ — ورد اسم (روسو) فى شعر حافظ فقال الشارحون :

« روسو كاتب فرنسى معروف ، وهو صاحب كتاب الاتفاق الجمهورى »

وما أعرف شيئاً عن كتاب « الاتفاق الجمهورى » ولعلهم يريدون كتاب « العَقد الاجتماعى » إلا أن يكونوا أبصر منى بالأدب الفرنسى ، وذلك جائز !

٤ — وكلمة (معروف) كثيرة الدوران على ألسنة الشارحين : فأبو تمام شاعر عباسى معروف ، والبحترى شاعر عباسى معروف ، وجمال الدين الأفغانى فيلسوف معروف ، ومحمد باشا سعيد هو الوزير المعروف ، إلى آخر ما نثروا فى الشرح من هذا اللفظ المعروف !

٥ — والترقيم خطأ فى بعض الأحيان ، فقد جاء فى المقدمة أن حاجة الشاعر إلى الخيال الخصب أقوى من حاجة الناثر ، والعبارة صحيحة ، ولكنها خُتمت بعلامة التعجب ، ولا موجب لذلك .

٦ — وأشير فى المقدمة إلى « حادثة المؤيد » بلا نص على مكانها من صفحات الديوان ، فهل أُهملت لأنها من الحوادث المعروفة ؟

٧ — وكذلك أشيرَ إلى « وداع الورد كروس » ، والصواب « لورد كروس » ، لأن « كروس » فى هذه العبارة لا يقع موقع عطف البيان ، وإنما يقع موقع المضاف إليه من المضاف ، وهذا أمرٌ قد يخفى على المبتدئين ، كما خفى على الأستاذ أحمد أمين .

٨ — وفى المقدمة : « لئن نقص حظ حافظ فى الخيال فقد غطى عيبه شيوع الجمال فى سائر نواحيه » ؛ والصواب « لقد » وحافظ نفسه يقول :

لئن هَدَوْكم لقد كانت أوائلكم تهدى أوائلهم أزمان أزمان

وقد عثرت على شواهد وقعت فيها الفاء فى مكان اللام فى مثل هذا التعبير ، وإذن تُقبل تلك العبارة بقول مرجوح ، وإنما أدافع عن هذا الخطأ لأنه وقع فى بعض أشعارى ! !

٩ — وفى ص ١٥١ ج ١ قال حافظ فى محمد المويلحى :

فإذا نثرت على الصحيفة خلتها غرساً ألحّ عليه صوب قطار

وجاء فى الشرح أن القطار جمع قطر بفتح فسكون وهو المطر ، ثم قال الشارحون : إن الديوان المطبوع فيه « نثار » مكان « قطار »

وأقول : إن الصواب إثبات « نِثار » وتصحيح كلمة « غرساً » ، فيكون البيت :

فإذا نثرت على الصحيفة خلتها غرساً ألحّ عليه صوب نثار

والنثار هو المعروف فى مصر بالنقوط فى يوم العرس ، وذلك هو المراد .

١٠ — وفى ص ٦٦ ج ١ قال حافظ فى تحية واصف غالى :

مازلت تُلقى على أسماعهم حججاً فى كل ناد وتأتيهم بسلطان

حتى انثنيت وما للعُرب مجترئ على البناء ولا زار على البانى

والصواب وضع كلمة « الغَرب » مكان « العُرْب »

١١ — وفى الصفحة عينها أن رينان هو الفيلسوف الفرنسى المعروف الذى ردّ عليه الأستاذ الإمام الشيخ محمد عبده فيما رمى به الإسلام والمسلمين من تهم ، وما نعرف أن الشيخ محمد عبده كانت له مواقف مع رينان ، وإنما كانت له مواقف مع هانوتو ، أما الذى ردّ هجوم رينان على المدنية الإسلامية فهو جمال الدين الأفغانى

١٢ — وفى ص ٦٠ ج ١ قال حافظ :

فانبرت ظبية الشآم وقالت بعض هذا فقد رفعت الشآما

وجاء فى الشرح : أى قولى بعض هذا ، إذ لا نستحق كله .

والصواب أن يقال فى الشرح : إطوى بعض هذا ، فما نستحق كل هذا الثناء

١٣ — والاضطراب فى رسم الأعلام الأعجمية يقع أحياناً فى هذا الشرح ، فهو جُو الشاعر الفرنسى تراه مرة هيجو ومرة هوغو ومرة هوجو ؛ وهنا نذكر أن الأعلام الأوربية نُشرت جميعاً بحروف عربية ، وكان يجب أن ترسم أيضاً بالحروف اللاتينية ليُعرف نطقها بالضبط ، فإن تعذّر هذا على الأستاذين أحمد الزين وابراهيم الإبيارى ، فقد كان يسيراً على الأستاذ أحمد أمين

١٤ — والأخبار الأدبية المتصلة بقصائد حافظ لم تأخذ حقها من البيان ، وستصير هذه الأخبار من المنسيات بعد حين ، فكان من الواجب أن تسجل قبل أن تضيع ، فإن لها أهمية فى توضيح مرامى ذلك الشاعر المرّ بغير

١٥ — وسكت الشارحون عمن سبقهم إلى شرح « القصيدة العمرية » ، وقد شُرحت مرتين : شرحها المرحوم محمد بك الخضرى ، وشرحها المرحوم مصطفى بك الشمياطى ، والنص على مثل هذا واجب فى الطبعات العلمية . وكان يجب أيضاً أن يُنص على تأثير هذه القصيدة فى الشعر الحديث ، فعلى غرارها صاغ الشيخ محمد عبد المطلب « القصيدة العلوية » ، وصاغ الشاعر عبد الحليم المصرى قصيدته فى الجد الأكبر للملك فؤاد ، وكان لتلك القصائد رنين فى المحافل الأدبية ، وقد تكون مصدر الوحى للشاعر أحمد محرم فى « الإلياذة الإسلامية »

درس الرواية

المقرر للمسابقة هو الجزء الأول ، ولكن النظر فى الجزء الثانى ينفع ، لأنه يكمل صورة حافظ الشعرية

وفى الجزء الأول مقدمة كتبها الأستاذ أحمد بك أمين ، وهى مقدمة وافية ، ومراجعتها بعناية تعين الطلبة على اجتياز الامتحان

وتقدم التوجيهات الآتية :

أولاً — جاء فى الجزء الأول أشعار تصور أشجان حافظ حين كان فى السودان ، فيجب الرجوع إلى ما يتصل بهذه الناحية فى الجزء الثانى

ومع هذا لا يستطيع الطلبة تصور محنة حافظ بأيامه فى السودان إلا إن نظروا فى كتاب «ليالى سطيح» ؛ والرجوع إلى هذا الكتاب مفيد جداً ؛ ففيه صفحات هى أقوى وأجل من كل ما هتف به حافظ فى دنياه ؛ وقد تكون أعظم ما أثر من الثورة على الاستبداد

وكان حافظ يحفظ «ليالى سطيح» عن ظهر قلب ، كما يحفظ قصائده الجياد ، ومن لم ير حافظ فى « ليالى سطيح » فهو من أدبه من الغافلين

ثانياً — حافظ كثير الكلام عما عرف من الرجال ، فديوانه ليس إلا صوراً جميلة أو دميمة لخلائق من اتصل بهم من قرب أو من بُعد ، ولهذا تقل فى شعره التأملات النفسية ، لأنه داعماً موصول بالمجتمع

ثالثاً — حافظ كثير التعريض فى مدائحه وأهاجيه ، وهو تعريض لم يظفر بما يستحق من الشرح ، فإن استطاع الطلبة أن يواجهوا لجنة الامتحان بأشياء سكت عنها الشارحون فقد يظفرون بطيف من الثناء !

رابعاً — قد أُرِّخت أكثر قصائد حافظ ، وبقى فريق منها بدون تأريخ ، فعلى الطلبة أن يبحثوا عن المناسبات ، وإليهم هذا الشاهد :

فى ص ٢٠١ ج ١ قال حافظ أبياتاً فى توديع شوقى يوم سافر إلى مؤتمر المستشرقين ، وننظر فى الشرح فنجد إحالة على الحاشية رقم ٥ ص ٥٠ . فإذا رجعنا إلى تلك الحاشية لم نجد كلاماً عن المؤتمر ولا عن مكانه فى التاريخ ، فماذا نصنع ؟

نرجع إلى الجزء الأول من الشوقيات ، وهو أيضاً مقرر لمسابقة الأدب العربى ، فنجد أن ذلك المؤتمر عُقِد فى جنيف (سبتمبر سنة ١٨٩٤)

خامساً — قد يُظن أن الشارحين دونوا جميع قصائد حافظ ، وليس الأمر كذلك ، فلحافظ قصائد لم تضف إلى هذا الديوان وسندل الشارحين على تلك القصائد عند الطبعة الثانية

سادساً — قال الأستاذ أحمد أمين إن الحزن الذى غلب على طبيعة حافظ هو الذى قضى بأن تكون أكثر قصائده فى المراثى . ونقول إن الرثاء كان يُفرض على حافظ فى كثير من الأحايين ، ومن هنا تقلُّ اللوعة فى أكثر مراثيه ، فيستر الموقف باجترار حوادث التاريخ

سابعاً — قيل وقيل إن حافظ لم يكن من أهل الصدق فى التغزل والتشبيب ، فما سبب ذلك ؟

يرجع السبب إلى أن تهييج المجتمع شغل حافظ عن سحر الجمال ، وقد يرجع إلى ضعف فى حاسته الذوقية من هذه الناحية ، فالإحساس بالجمال يتفاوت عند الشعراء ، كما تتفاوت الحواسّ عند سائر الناس

وربما جاز القول بأن حافظ كان فى سريرة نفسه من عبيد المجتمع ، فهو يغنّى على ليلى المجتمع قبل أن يغنى على ليلاه ، والمجتمع كان ينتظر منه البكاء على المصائب اليومية ، قبل أن ينتظر منه التغريد فوق أفنان الجمال

ثامناً — تشهد أشعار حافظ بأنه كان ابن زمانه وابن وطنه ، فلم تكن له نزعة فلسفية ولا وثبة إنسانية إلا فى أندر الأحيان ، وأشعاره فى مآسي بعض الأمم الشرقية أو الغربية لم تكن إلا صدى للعواطف المصرية فى ذلك الحين ، وهى فى الأغلب عواطف تخلقها الجرائد والمجلات

المحترم حافظ ابراهيم

نقول فى شعر حافظ وفى نثره ما نشاء ، ونتجنى عليه كما نريد ؛ أما حافظ المحدَّث فهو أديب لم تر مثله أندية الأدب منذ أجيال طوال

وما ظنكم برجل كان الزعيم سعد زغلول يتشهّى حديثه كما يتشهى عودة الشباب ؟

لا أذكر أنى رأيت رجلاً فى مثل ظرف حافظ ، ولا أكاد أصدق أن الدنيا ستسمح بأن يكون له ضريب أو مثيل

سألت أستاذى الشيخ (رنيه دوميك) عن أهمّ خصائص أناطول فرانس فأجاب :

— Le meilleur causeur, la plume à la main

ولو أن شاعرنا حافظ كان يكتب كما كان يتكلم لكان سحره فى اللغة العربية شبيهاً بسحر أناطول فرانس فى اللغة الفرنسية

وبراعة حافظ فى الحديث هى التى قضت بأن ينتصر عليه غريمه شوقى ... كان حافظ يتحدث ويتحدث إلى أن تنفد قواه فلا تبقى له قدرة على الثناء ؛ وكان شوقى يصمت ويصمت ليستجمعَ فتبقى له القدرة على السجع والهُتاف . والقُوى الإنسانية لها حدود ، وإلا فكيف جاز أن يكون المدرسون أعجز الناس عن الشعر والخطابة والتأليف ؟

ألا يرجع ذلك إلى أنهم يضيعون نشاطهم فى الدرس ، فلا تبقى لهم عافية يصاورون بها تلك المواهب الأدبية ؟

أراد حافظ أن يُمتع أهل زمانه فأشاعوه . كان زينة الأنديـة والمحافل ، وكان حديثه أشهى من وعد الحبيب بعد طول الجفاء ، وأطيب من اندحار الرقيب ، وأشهى إلى النفس من الانتصار على السفهاء ، إن كان الانتصار على السفهاء من الممكنات !

عليك — يا حافظ — تحية الشعر والنثر والحديث

وإلى روحك فى عالم الخلود ، تقدم آيات الثناء ، يا حجتنا الباقية على أن مصر مهد الروح المتوهج والقلب الخفاق

زكى مبارك

حكم فى القضية ٦٣ سنة ٩٤١ عسكرية بنى سويف بتغريم محمد على طايع من نزلة حرزه مركز ببا خمسة جنيهات لأنه باع أذرة بأزيد من التسعيرة